القسم الأول

الباب الأول

مدخل إلى التعريف بالدعاء

أولاً : معنى الدعاء وَصِيَغُهُ:

الدعاء : هو الرغبة إلى الله - تعالى - والضراعة إليه - سبحانه وتعالى - وقد وردت كلمة (الدعاء) فى القرآن الكريم بمعان ثلاثة، وهى :

١- الضراعة :

وقد ورد هذا المعنى فى كثير من آى القرآن الكريم، وهذه أمثلة لذلك:

* يقول الله - تعالى - **﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ﴾**(١).

* ويقول - عزَّ من قائل - : **﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِى النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِى ضَلَالٍ﴾**(٢).

٢- التسمية :

* يقول الله تعالى - : **﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾**(٣).

* ويقول أيضا : **﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا...﴾**(٤).

---

(١) سورة البقرة : ١٨٦.

(٢) سورة غافر : ٤٩ ، ٥٠.

(٣) سورة الإسراء : ١١٠.

(٤) سورة الأعراف : ١٨٠.

٣- العبادة :

* يقول الله - تعالى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ...﴾(٥).

* ويقول أيضا : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾(٦).

فأكثر المفسرين يحملون الدعاء هنا على معنى العبادة، ويكون المعنى على ذلك:

اعبدونى أستجب لكم، والاستجابة هنا هى الإثابة، أى اعبدونى أثبكم، ومما يشهد لذلك قول رسول الله ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**»(٧).

* ويقول الله - عزول وجل - : ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾(٨).

ومما تجب ملاحظته هنا أن هذه المعانى الثلاثة التى أوردناها للدعاء يصح حمل بعضها على بعض، وإقامة بعضها مقام البعض الآخر، فالعبادة والتسمية ضراعة ورجاء.

ثانياً : أهمية الدعاء بالنسبة للمسلم:

ترجع أهمية الدعاء بالنسبة للمسلم إلى كونه وسيلة لاستمطار رحمات الله فى حال الشدائد، والتعرف إليه فى حال الرخاء، ففى الحديث الشريف: «**تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة**».

---

(٥) سورة الأعراف : ٢٩ ، ٣٠.

(٦) سورة غافر : ٦٠.

(٧) رواه ابن حبان والترمذى.

(٨) سورة الكهف : ٢٨.

فبواسطة الدعاء تنفرج الأزمات، وتنْحَلُّ العقد، وتُسْتَدفَعُ الشدائد والصعاب، هذا فضلا عن أن الدعاء فى حال الرخاء واليسر لون من ألوان العبادة، التى تَوَثِّقُ عُرى الصلة بالله، فشكر الله والثناء عليه هو الوسيلة الحقيقية لاستدامة النعمة، يقول الله تعالى-: ﴿**وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ**﴾[1]. والدعاء المستوفى لشروطه وآدابه مظهر من مظاهر العبودية الحقة لله رب العالمين، وبقدر ما يُحَصِّلُ العبدُ من ضراعة وصدق وإخلاص فى دعائه بقدر ما يكون إقبال الله - تعالى - عليه، واستجابته لندائه، **ففى الدعاء خير الدنيا والآخرة: فيه البركة، فيه العافية، فيه المدد، فيه الغوث والأمان.**

ويكفى الدعاء فضلا أن الله يدفع به البلاء والعناء، يقول الله - تعالى - : ﴿**قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا**﴾[2]. ومعنى ذلك : أن الله - سبحانه وتعالى - لايبالى ولا يعتد بعباده لولا عبادتهم إياه، فكما أن المؤمنين المطيعين يحصلون الثواب العظيم لقاء أعمالهم الخيرة، فالكافرون لايلتفت الله إليهم، بل يتركهم لأنفسهم، وهذه الآية تدل على أن الدعاء قد استعمل بمعنى العبادة، فالعبادة دعاء، والدعاء عبادة، والله يعطى عباده المؤمنين الحسنى وزيادة.

ثالثاً : التعارض بين الدعاء والقضاء والقدر شبهة داحضة:

قد علمنا - فيما سبق - أهمية الدعاء بالنسبة للمسلم، وأنه يفيد مما نزل ومما لم ينزل، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة والصريحة، ولكن مع وضوح ذلك كله فَرُبَّ معترض يلتبس عليه الأمر، وتختلط أمامه القضايا، ولايستطيع الوصول إلى حقيقة كل من الدعاء، والقضاء والقدر، فيقول: ما فائدة الدعاء إذا كان الله ـ تعالى ـ قد قَدَّر كل أمر وقضاه؟ فكل أمر فى علم الله - تعالى - مقدر ومعلوم بالنسبة لكل أحد؟!!

(١) سورة إبراهيم : ١٤.

(٢) سورة الفرقان : ٧٧.

وللإجابة على هذه الشبهة نقول :

إن الدعاء لايتعارض قطعاً مع عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر، لما ثبت أن النبى ﷺ قد دعا الله فى مواطن كثيرة مع علمه التام بذلك، كما أخبرنا القرآن الكريم بأحوال أناس من الأنبياء والمرسلين والصالحين الذين دعوا الله - تعالى - فاستجاب لهم، بل إن كل واحد منا ليسأل الله أن يوسع له رزقه، مع علمنا التام بأن الله - سبحانه وتعالى - قد تكفل لنا بالأرزاق، وهو الذى يعلم مقاديرها وأماكن تحصيلها، وأزمان الحصول عليها، والآيات فى ذلك كثيرة وواضحة.

* يقول الله - تعالى - : ﴿**وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾[1].

* ويقول أيضا : ﴿**وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لاَّتَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾[2].

ونحن نسأل الله - تعالى - العافية، ونسأله سائر مطلوبات الحياة مع علمنا بأنها مقدرة، بل ولقد وردت الأحاديث التى تدل على أن الله يحب أن يُسْأل، وأنه يغضب من عبده الذى يُعرض عنه ولا يسأله، فعن ابن مسعود - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**سلوا الله من فضله، فإن الله يحب أن يُسأل، وإن أحب عباده إليه الذى يحب الفرج**».

وفى رواية القرطبى: «**أفضل العبادة انتظار الفرج**»، وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال : «**من لم يسأل الله غضب الله عليه**»[3].

وقد تصدى لهذه القضية الإمام أبو حامد الغزالى فقال :

---

(١) سورة هود : ٦.

(٢) سورة العنكبوت : ٦٠ .

(٣) البخارى فى الأدب المفرد.

«اعلم أن من القضاء رد البلاء بالدعاء، فالدعاء سبب لرد البلاء، واستجلاب الرحمة، كما أن الترس آلة يضعها المحارب على صدره، وهى سبب لرد السهم، والماء سبب لخروج النبات من الأرض.

فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان، فكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان، وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله - تعالى - ألا يحمل السلاح، وقد قال الله تعالى: ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾[1]، وألا تُسقى الأرض بعد بذر النبات، وإن لم يُسْق لم ينبت، بل ربط الأسباب بالمسببات هو القضاء الأول الذى هو كلمح البصر أو هو أقرب، والذى قدر الخير قدره بسبب، فلا تناقض بين هذه الأمور عند من انفتحت بصيرته»[2].

ولعل فى الواقعة التى سنوردها - فيما يأتى - ما يعين على فهم طبيعة الإيمان بالقضاء والقدر وعلاقة العمل بذلك، فقد جاء «سراقة بن مالك» إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله بين لنا ديننا كأننا خُلقْنَا الآن، ففيم العمل؟ أفيم جفت به الأقلام، وجرت به المقادير، أم فيما يُستقبل؟ فقال رسول الله ﷺ: «**فيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير**» قال سراقة : ففيم العمل؟ فقال النبى ﷺ : «**اعملوا فكل مُيَسَّرٌ لما خلق له**».

ومعنى هذا الحوار أن النبى ﷺ قد رغب الناس فى العمل، ورهبهم بسابق القدر، ولم يترك أحد الأمرين للآخر، بل قال: إن كل إنسان مُيَسَّرٌ لما خلق له، بمعنى أنه ميسر فى حياته للعمل الذى سبق به القدر قبل وجوده؛ ولهذا فإن الأفعال التى دعت إليها الشريعة كنوع من الدعاء الذى يخفف عن الناس يمكن حمله على هذا المعنى.

* فصلاة الجنازة دعاء للميت، وهى عبادة مشروعة، وليست من عمل الميت، وإنما هى من عمل غيره، ومع هذا فإننا مأمورون بها على سبيل الفرض

---

(١) سورة النساء : ١٠٢.

(٢) إحياء علوم الدين، ج١، ص ٣٣٦.

الكفائى، لو لم يقم بها أحد من المسلمين لكانوا آثمين جميعاً، وإن قام بها البعض سقط الإثم عن الباقين.

* وصلاة الكسوف والخسوف، وصلاة الاستسقاء، هذه عبادات مشروعة، وهى ضراعة إلى الله وابتهال، ولها هيئات معروفة، وكيفيات مخصوصة.

* وكذلك الصلاة والدعاء عند كل أمر مخوف، كالزلازل والصواعق، والعواصف الشديدة التى تعرف بالأعاصير (جمع إعصار)، كل هذه الأمور يجب الفزع عند حلولها إلى الله، وقد حث النبى ﷺ على ذلك فقال: «**إذا رأيتم من هذه الأفزاع شيئا فارغبوا إلى الله بالدعاء**».

والإنسان بفطرته يلجأ إلى الله عند الشدائد، ومهما كانت درجة إيمانه بالله من الضعف أو من القوة، والأحاديث فى هذا الشأن، ووقائع الدهر أكثر من أن تحصى.

وبهذا يمكن التوفيق بين الأمر بالدعاء والإيمان بالقضاء والقدر، ويؤكد أن شبهة التعارض بينهما شبهة داحضة، فهى أوهى من بيت العنكبوت، فنحن فى حياتنا الدنيا نفر من قدر إلى قدر، نفر من قدر الجوع إلى قدر الشبع، ونفر من قدر الظمأ إلى قدر الرى، ونفر من قدر المرض إلى قدر العافية والصحة، وكذلك سائر مفارقات الحياة، ويذكر أن أبا عبيدة بن الجراح قال لعمر بن الخطاب - رضى الله عنهما - حينما كان سائرا إلى الشام، فسمع بطاعون عمواس فرجع ولم يدخلها : أتفر من قدر الله؟ فقال له عمر: نعم أفر من قدر الله إلى قدر الله. أى يفر من قدر المرض والوباء إلى قدر الصحة والعافية، ثم ضرب له مثلا بالأرض الجدباء والأرض الخصبة، وأنه إذا انتقل بإبله من الأرض الجدباء إلى الأرض الخصبة ليرعى فيها إبله فإنه ينتقل من قدر الله إلى قدر الله.

رابعاً : الاحتجاج بالقضاء والقدر على تبرير ارتكاب المعاصى :

ينبغى أن نفهم الإيمان بالقضاء والقدر على نحو ما ورد، وفى ذات الوقت لاينبغى أن نحتج به على ارتكاب المعاصى واقتراف الذنوب؛ لأن ذلك يدل على عدم فهم هذه القضية فهما دقيقا صحيحا، وهذه نماذج من الأمثلة التى توضح لنا ذلك:

* دخل رسول الله ﷺ يوماً على الإمام على - كرم الله وجهه - بعد صلاة العشاء، فوجده قد بكر بالنوم، فقال له : «**هلاَّ قمت من الليل؟**» فقال: يارسول الله أَنفُسُنَا بيد الله، إن شاء بسطها، وإن شاء قبضها، فغضب رسول الله ﷺ وخرج وهو يضرب على فخذه ويقول: ﴿**وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً**﴾(١).

* سرق أحد اللصوص، فلما حضر بين يدى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - سأله : لم سرقت؟ فقال: قدَّر الله ذلك علىَّ. فقال عمر: اضربوه ثلاثين سوطا ثم اقطعوا يده، فقيل له: ولم يا أمير المؤمنين؟ فقال: يقطع لسرقته، ويضرب لكذبه على الله.

* روى عن جابر - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ أنه قال: «**يكون فى آخر الزمان قوم يعملون بالمعاصى، ثم يقولون: الله قدرها علينا، الراد عليهم يومئذ كالشاهر سيفه فى سبيل الله**».

ونود أن نتوج هامَ هذا الموضوع بما يلى :

* روى ابن جابر - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال: «**يدعو الله بالمؤمن يوم القيامة حتى يوقفه بين يديه فيقول: عبدى إنى وعدتك أن تدعونى، ووعدتك أن أستجيب لك، فهل كنت تدعونى؟ فيقول: نعم يارب، فيقول: إنك لم تَدْعُنى بدعوة إلا استجبت لك، أليس دعوتنى يوم كذا وكذا لغَمٍّ نزل بك أن أفرج عنك**

(١) سورة الكهف : ٥٤.

ففرجت عنك؟ فيقول: نعم يارب، فيقول: إنى عجلتها لك فى الدنيا، ودعوتنى يوم كذا وكذا لغم نزل بك أن أفرج عنك فلم تر فرجاً؟ قال : نعم يارب، فيقول: إنى ادخرت لك بها فى الجنة كذا وكذا» ويظل - سبحانه وتعالى - يبين لعبده المؤمن كل دعوة دعا بها، إما أن يكون قد عجل له بها فى الدنيا، أو يكون ادخرها له فى الآخرة حتى يقول المؤمن عندئذ: ياليته لم يكن عُجِّلَ له شىء من دعائه فى دنياه.

*** ولقد كان القطب الربانى، والفرد الصمدانى، العارف بالله سيدى إبراهيم القرشى الدسوقى - رضى الله عنه - يردد دائما بعد كل صلاة : أعددت لكل هول ألقاه فى الدنيا والآخرة لا إله إلا الله، ولكل هم وغم ما شاء الله، ولكل نعمة الحمد لله، ولكل رخاء وشدة الشكر لله، ولكل أعجوبة سبحان الله، ولكل ذنب أستغفر الله، ولكل مصيبة إنا لله وإنا إليه راجعون، ولكل ضيق حسبى الله ونعم الوكيل، ولكل قضاء وقدر توكلت على الله، ولكل طاعة ومعصية لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.**

* إذا كان العبد المؤمن سيفوز فى كل دعاء لله بأجر واستجابة، مصداقا لما رواه سلمان الفارسى ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ : «**إن ربكم ـ تبارك وتعالى ـ حَيِىٌّ كريم، يستحى من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردَّهما صفراً**» وفى رواية : «**صفرا خائبتين**»(١).

فإن على العبد المؤمن أن يتعلم أحكام الدعاء وآدابه؛ ذلك لأن جهله بهذه الأحكام سيوقعه فى بعض الشدائد والمحن التى لايدرى لها سببا، وكل ما يعلمه أنه يقبل على ربه ضارعًا إليه وخائفا منه، كهذا الرجل الذى كان يدعو الله بأن يعجل له العقوبة فى الدنيا، فلم ينجه من الخطر إلا دعاء الرسول ﷺ له.

---

(١) رواه أبو داود والترمذى.